معاهدات الأمير عبد القادر مع المستعمر الفرنسي
بركاني رابح / بركاني محمد أمين ، المجلد الثاني عشـر، العدد 2، ماي 2021،
ص ص 214-230

E-ISSN : 2571-9742
P- ISSN: 1112-945X

معاهدات الأمير عبد القادر مع المستعمر الفرنسي

(الأسباب والنتائج)

Treaties of Emir Abdelkader with the French colonialist
(Causes and consequences)

رابح بركاني (*)
جامعة الجزائر 1، الجزائر
ra.berkani@univ-alger.dz

محمد أمين بركاني
جامعة الجزائر 1، الجزائر
mo.berkani@univ-alger.dz

تاريخ الإيداع: 11 /2020/12 تاريخ القبول: 2021/04/17 تاريخ النشر: 2021/05/30

الملخص:

إن الأمير عبد القادر الجزائري رمز من رموز المغرب العربي والأمة الإسلامية في ق19م ومؤسس الدولة الجزائرية الحديثة، وأيقونة الكفاح في العالم، وهو العالم الشجاع الأديب الشاعر الفارس المجاهد، الذي تمكن من مجابهة أقوى جيوش العالم آنذاك طيلة سبعة عشر سنة، ولم يكن ليصمد كل تلك المدة لولا حنكته السياسية وشخصيته العظيمة وشجاعته، ما جعل العدو يشهد له قبل الصديق، وقد ظهرت مواهب الأمير السياسية جليا في معاهداته مع المستعمر الفرنسي، ولذا نسلط الضوء في بحثنا هذا على شخصية الأمير عبد القادر من الناحية السياسية من خلال المعاهدات التي كانت بينه وبين المستعمر الفرنسي للوصول إلى أسباب إبرام تلك المعاهدات والنتائج المترتبة عنها، ولتصحيح تاريخ أحد رموز النضال في الجزائر ومؤسس الدولة الجزائرية الحديثة.

الكلمات الدالة:

الأمير عبد القادر، معاهدة تافنة، معاهدة ديميشال، معاهدة لاموريسير.

Abstract:

Emir Abdelkader Al-Jazaery is a symbol of the Arab Maghreb and the Islamic nation in the 19 century CE and the founder of the modern Algerian state, and an icon of struggle in the world, and he is the courageous scholar, the poet, The Muslim Mujahid, who was able to confront the most powerful armies of the world at that time for seventeen years, and would not have withstood all these The period had it

(*) المؤلف المرسل: **بركاني رابح** ra.berkani@univ-alger.dz

E-ISSN : 2571-9742
P- ISSN: 1112-945X

not been for his political acumen, great personality and courage, what made the enemy testify to him before a friend, and the prince's political talents were evident in his treaties with the French colonialist, and so in our research we shed light on the personality of Emir Abdel Kader in political terms through the treaties that were between him and the colonizer To reach the reasons for concluding those treaties and the consequences of them, and to correct the history of one of the symbols of struggle in Algeria and the founder of the modern Algerian state.

Key Words:
Emir Abdelkader, the Treaty of Tafna, the Treaty of Desmichels, the Treaty of Lamoricière.

****

مقدمة:

كانت مقاومة الأمير عبد القادر من أشد المقاومات على الاستعمار الفرنسي من ناحية العدد والتنظيم وتحكمت في أغلب المناطق الإستراتيجية، ولكن ذلك لم يكن كافيا لتأسيس دولة معترف بها دوليا، فالمعلوم أن الجانب السياسي له أهميته أيضا، ولذا نتطرق في مقالنا هذا إلى موضوع مهم في حياة الأمير عبد القادر من خلال معاهداته مع المستعمر الفرنسي لنخلص الى رؤية واضحة للنبوغ السياسي والذكاء الاستراتيجي عند الأمير عبد القادر الذي خوله لإقامة دولته وانتزاع الاعتراف الدولي، وحتى الفرنسي بها كدولة مستقلة. ونسلط الضوء كذلك على المسائل التي أثيرت حولها، كاللغة التي كتبت بها، ونفصل في مسألة من يعتبرها موالاة للكافر المعتدي ومن يعتبرها ذكاء استراتيجيا وحنكة سياسية، ونسعى للوصول إلى الحقيقة التاريخية بعيدا عن الأدبيات والروايات الباطلة التي لا دليل عليها من خلال المصادر والمراجع التي تناولت سيرة حياة الأمير.

واعتمدنا في بحثنا هذا على مصادر معاصرة للأحداث ومن خواص الأمير وطلابه، كما اعتمدنا على كتاب "حياة الأمير" لتشرشل وعلى مراجع ودراسات عربية، وكان منهجنا في اختيار المصادر والمراجع، يعتمد على مدى قربها ومعاصرتها للحدث، وركزنا على أهلية الكاتب ومدى موضوعيته، وتكمن أهمية هذا البحث في إبراز دور وأهمية الجانب السياسي في ثورة الأمير عبد

E-ISSN : 2571-9742
P- ISSN: 1112-945X

القادر وإظهار حنكته السياسية وتفوقه على الفرنسيين في هذا الجانب وتصحيح تاريخ أحد رموز النضال في الجزائر ومؤسس الدولة الجزائرية الحديثة.مما سبق نطرح الإشكالية التالية: ماهي أسباب معاهدة الأمير عبد القادر للمستعمر الفرنسي؟ وماهي النتائج التي ترتبت عنها؟

2. التعريف بالأمير عبد القادر

تناولت الكثير من الكتب سيرة حياة الأمير عبد القادر ولعل أشهرها "تحفة الزائر" لمحمد بن عبد القادر الجزائري، وكتاب هنري تشرشل "حياة الأمير عبد القادر"، ولذا نحاول تلخيص ما جاء فيهما مع الاستعانة بمراجع أخرى مع التركيز على ما يخدم موضوعنا.

1.2 . مولده ونشأته:

ولد الأمير عبد القادر في قرية القيطنة التي أسسها جده مصطفى بن محمد ابن المختار على الضفة اليسرى لوادي الحمام منطقة غريس غربي مدينة معسكر من أيالة وهران في بلاد الجزائر[1]، يوم الجمعة (13 رجب سنة 1222هـ- 26 ديسمبر 1807م)، وكانت وفاته يوم الجمعة (19 رجب 1300هـ- 24 ماي سنة 1883م)، وقد نقل بعد وفاته إلى دمشق ودفن بجوار محي الدين العربي على سفح جبل قاسيون بالصالحية حيث يجمعهما ضريح واحد[2].وكانت غريس يومئذ حافلة بالزوايا ومراكز العلم والثقافة، فكثر فيها حفاظ القرآن الكريم وحملة الفقه الإسلامي على مذهب الإمام مالك، وكان منزل جده مصطفى من أشهر المنازل التي يعود إليها العامة والخاصة من حل وعقد، ومازالت على تلك الحال حتى توفي جده ليخلفه ابنه محيي الدين والد الأمير عبد القادر، فكان على عهد أبيه من الورع والعلم، إلى أن رزق بابنه عبد القادر الذي رباه تربية صالحة إسلامية مقتديا في ذلك أثر أسلافه، وقد كانت لعبد القادر مكانة عند والده رغم أنه كان أصغر إخوته، فقد لمح الأب فيه النجابة والشجاعة فقربه منه، حيث كان عبد القادر يستطيع القراءة والكتابة في سن الخامسة، كما حفظ القرآن في سن مبكرة[3].

وبعد أخذه الفقه عن والده، رحل إلى وهران وقد كانت وهران حاضرة للعلم في زمانه، فخالط مختلف علمائها من المتصوفة والفقهاء، وحصل من العلوم منهم ما خوله أن يبلغ

E-ISSN : 2571-9742
P- ISSN: 1112-945X

مكانة عندهم، وقد حج الأمير مع أبيه عام 1825م وكانت رحلته تلك باب علم له، فقد سمع أثناء ذلك صحيح البخاري من شيوخ دمشق، كما أخذ التوحيد والتصوف من الإمام ضياء الدين خالد السهروردي[4]، وكان اعتنائه وحبه للسنة كبيرا[5].ينتهي نسب الأمير عبد القادر إلى آل بيت النبي عليه الصلاة والسلام، فهو عبد القادر بن محيي الدين بن مصطفى بن محمد بن المختار بن عبد القادر بن أحمد، المختار بن عبد القادر بن أحمد المشهور بابن خدة وهي مرضعته، ابن محمد ابن عبد القوي بن علي بن أحمد بن عبد القوي بن خالد بن يوسف بن أحمد بن بشار بن محمد بن مسعود بن طاووس بن يعقوب بن عبد القوي بن أحمد بن محمد بن إدريس الأصغر بن إدريس الأكبر بن عبد الله المحض بن الحسن المثنى ابن الإمام الحسن السبط رضي الله عنهم[6]، وهذا هو نسبه المشهور والذي ذكره الكثير من المؤرخين.

بعد أن بلغ الأمير أشده واستوى، تمت مبايعته كأمير خلفا لأبيه الذي اعتذر لتقدم سنه، فبايعه مجلس مدينة معسكر في 3 رجب 1248هـ/1832م، ثم بايعه الناس بيعة عامة في 13 من رمضان 1248هـ/1833م، ولقبه والده بأمير المؤمنين ناصر الدين، وقد أقام الأمير دولته على الفضل والعدل والنظام[7]، وبذلك بدأت حياة الأمير المجاهد من تلك اللحظة ليصبح أحد رموز الكفاح في العالم، ويحقق بجهد فردي ما عجزت عنه دول رغم تقاعس الصديق وخيانة الجيران ونذالة المستعمر.

2.2 شهادات في وصف الأمير

اشتهر الأمير عبد القادر في كل دول العالم دون مبالغة، ولذا تكلمت فيه الكثير من الكتب والجرائد ومدحته ألسن كثر، ونذكر منها فيما يخص هيأته ما ذكره الجنرال بيجو (Bugeaud) واصفا الأمير ".. وقبل أن أدخل في الحديث معه، أخذت أتأمّل وجهه وكسوته لحظة. إنه شاحب اللون، وصورته قويّة الشبه بالصورة التقليدية المعروفة للمسيح، وعيناه مثل لحيته، كستنائيّة اللون. ومظهره العام يدل على التقوى والخشوع، وهو بعد النظرة الأولى يخفض عينيه ثم لا يحدّق في الأشياء أبدا.

E-ISSN : 2571-9742
P- ISSN: 1112-945X

وأما كسوته فهي عادية ومستعملة في حدود ثلاثة أرباعها، إنه لمن الواضح أنّ الرجل يلتزم التقشّف والبساطة"[8]، ومما يظهر في الوصف تأثره الكبير بالأمير وشعوره بالهيبة والقداسة حين المثول أمامه ولذا شبهه بالمسيح، ورغم وجود مختلف الأوصاف للتعبير عن الشكل ولكنه اختار ذلك الوصف، لما للأمير من هيبة ووقار جعلت ذاكرة الجنرال الفرنسي تترك كل وصف وتعجز عن التعبير إلا بمن رأت فيه شبها للأمير وفي نظره ان له مظهر المسيح، وأما إعراضه عن الدنيا وعزوفه عنها فقد شهد له بذلك الكثير ويقول أحد المؤرّخين الفرنسيين في هذا "... كان احتقاره للثروة وعزوفه عن مظاهر البذخ من المظاهر المميزة لشخصيّته"[9].أما فيما يخص فروسيته وشجاعته وثباته، فجهاده في سبيل الله دام ما يقارب سبع عشرة عاما خاض خلالها حروبا طاحنة، ومعارك عنيفة ضد دولة كبرى كان يعتبر جيشها من أقوى الجيوش، تكفي أن تجعله في مصاف القادة الكبار، فشجاعة الأمير وبسالته وذكائه وحنكته السياسية، كل ذلك مكنه من صد المعتدين طيلة الأعوام السبعة عشرة، وقد أظهر فيها معدنا صلبا وعقيدة إسلامية راسخة. قال بعض المؤرخين الفرنسيين "...إنّ عبد القادر قد تحدّى أكبر الجيوش في وقته، واخترع حرب العصابات، ووضع أسس الوطنية الجزائرية، وأعطى لغيره دروسا في المهارة والالتزام للدبلوماسيين ...ولكن هناك كتّاب آخرون يذكرون أن الأمير كان باعث الوطنية الجزائرية، فقد وصل خطابه أعماق الشعب...

كان الأمل أكبر من الواقع والزمن أقصر من الأجل، ولو طال العهد لازدهرت الدولة الجديدة وأثمرت الآمال العريضة ولأخصب الدِّين والفكر والعلم والفن في عصر كان العالم الإسلامي كله فيه ينتظر مثل هذا الوليد"[10]، ففي أشد المصائب وقعا حين سقطت عاصمته الثانية بالزمالة في غيابه ونهبت بعد أن قتل غالبية أهلها، وأسر ما يقرب الثلاثة آلاف شخص، وسلبت مكتبته التي تعلق بها كثيرا وتعب في تحصيلها، قال سبحان الله، كل شيء كنا نحبه وتعلقت أفكارنا به كان يعوق حركاتنا، ويقف في صدورنا عن الوصول إلى مطلبنا، والآن صرنا أحرارا متجردين، لا شغل لنا إلا مقارعة الأعداء، ومصارعتهم[11].

E-ISSN : 2571-9742
P- ISSN: 1112-945X

وقد لاقت حياته ومواقفه الكثير من الإعجاب، ويذكر صاحب تحفة الزائر شهادة أسكندر بالمار أنه قال: من العجب رجوع قوة الأمير عبد القادر إلى حالها الأولى بعد أن اعتراها الاضمحلال والتلاشي ثلاث مرات: الأولى بعد استيلاء الجنود الفرنسيين على عاصمته معسكر، والثانية بعد غزوة تلمسان، والثالثة بعد غزوة سكاك، وكل حادثة من هذه الحوادث كانت صالحة لأن تكون سببا قويا لسقوط أعظم سلطان راسخ القدم...فلهذا أقول: لله در هذا الرجل العظيم الذي كانت سياسته عجيبة... [12] . ولا نعتقد أنه يمكننا الفصل بين شخصية الأمير وبين المبادئ الإسلامية التي زرعت فيه منذ صغره، والتي ترجمت واقعا في صبره ورضائه بالقضاء والقدر مع بذل كل سبيل في بناء دولة إسلامية جزائرية حرة، ليحقق التوكل على الله اعتقادا وعملا.

ونختم بشهادة الدكتور والمؤرخ الكبير أبو القاسم سعد الله القائل: "إنّ الأمير في نظري هو موقظ الضمير الوطني الجزائري بأفعاله وأقواله طيلة عهد جهاده الذي بلغ سبعة عشر عاما ... ولعلّ الأمير قرأ جيدا واستفاد كثيرا من مقولة ابن خلدون: إنّ العرب لا تجتمع إلاّ على عصبيّة أو دين"، فجعل الأمير العصبية نصب عينيه واستحضر عهد البعثة النبوية وعهد الصحابة، ولم يكن يفرّق في ذلك بين أبناء الجزائر في الأصل، فقد كانوا عنده جميعا عربا ومسلمين... وقد عرفوا قدره أكثر بعد أن غاب عنهم وترك فراغا لم تملأه أيّة شخصيّة من بعده ، لأنّ كل من ظهر بعده كان يفتقر إلى العناصر التي تمتع بها الأمير، وهي تحديد الهدف وخدمته بكل الوسائل: الحرب والدبلوماسية والشجاعة والرأي والإخلاص"[13].ولعل شهادة المؤرخ الجزائري الكبير كافية لمعرفة مقدار قيمة هذا الأمير وبسالته ومشروعه الإسلامي الذي كان قد بدأ في تنفيذه ولكن الأقدار لم تكتب له ذلك، وفيما يتعلق بأحداث عام 1860م والتي سنذكرها لاحقا، نشرت جريدة فرنسية أخرى مقالاً جاء فيه: "الأمير عبد القادر هو ذلك الرجل الباسل الذي أبدى أمورا وأعمالا لم يكن أحدٌ يتصورها، ولذلك كانت جديرة بأن تدوّن في أجمل تواريخ العالم، وآخر ما نقول إنّ عدونا القديم في الجزائر قد جعله الله الآن سببا لإنقاذ المسيحيين في الشام"[14].

E-ISSN : 2571-9742
P- ISSN: 1112-945X

وقد ذكرت جريدة (مندابلوسنمري) الفرنسية في عددها الصادر في 1860/8/4م تحت عنوان: "عبد القادر أمير (مُعسكر) سابقًا" ما نصّه :...وغاية الأمر فإنّ مزايا الأمير وأخلاقه الكريمة كانت دليلاً على شرف نفسه وتقدّمه في الجزائر كما هو الآن في سورية، وبرهانًا قويًا على طهارة قلبه وإرادته الخير إلى سائر عباد الله ....الخ"[15]. ليس هذا فحسب، "ففي مدّة إقامة الأمير في الحجاز عام 1280هـ = 1864م، توفّي ملك اليونان وانعقد مجلس نواب الأمة اليونانية في أثينا للنظر فيمن يولونه عليهم ملكًا، فكتبوا اسم الأمير في المنتخبين لذلك، ونادى كثيرٌ منهم باسمه، وكذلك أهل إسبانيا قد انتخبوه في جملة مَنْ انتخبوهم للمُلك عليهم حين وقوع الفتنة بينهم قبل أن يتولى ملكهم المتوفى أخيرًا. فتشكّر الأمير للأُمّتين على اعتبارهما لمقامه بما دلّ على ما تكنّه صدورهم من احترامه وإعظامه"[16].كل هذه الشهادات وغيرها، لا يمكن أن تقال جزافا ولا محاباة بل هي نتيجة بحث عميق ودراسة لشخص قلَّ مثيله وكثرت خصاله وتعددت مواهبه وحسن أدبه، فشهد له الصديق والعدو والقريب والبعيد، وما زاده ذلك شيئا في نفسه ولا استعلى على قومه وما أنكر دينه وبلده وسيأتي فيما يلي ما يدل على ما نقول.

3.2 . أثر شخصية الأمير في الجنود الفرنسيين:

من أجل أن نبرز جليا مدى عظمة شخصية الأمير، نذكر فيما يلي أثره على الجنود الفرنسيين وقادة الجيش، ما جعل جنودهم وقادة جيشهم ينبهرون به، حيث أن بعضهم كان يفر من الجيش الفرنسي ليلتحق مع جيش الأمير؛ يقول الكولونيل شارل هنري تشرشل (**Charles Henry Churchill**): "لقد كان مدربو جيش الأمير النظامي من المشاة، من الفارّين من الجيش الفرنسي، وقد ازداد هؤلاء الفارّون إلى أن أصبحوا أخيراً يكوّنون كتيبة خاصة بهم، وقد حاربوا ضد مواطنيهم (الفرنسيين المسيحيين) بكل شجاعة وإقدام، لا يكاد الجندي المسلم يزاحمهم فيها "[17].

ويقول تشرشل في صدد حديثه عن انبهار الجيش الفرنسي بأخلاق وأعمال الأمير عبد القادر: "وقد قال أحد الضباط الفرنسيين الكبار بعد ذلك: "لقد كان علينا أن نخفي هذه الأشياء بقدر ما نستطيع على جنودنا، لأنهم لو اطلعوا عليها لما كان في استطاعتنا أبدًا أن

E-ISSN : 2571-9742
P- ISSN: 1112-945X

نجعلهم يحاربون عبد القادر بنفس الاندفاع والحماسة"[18]، فلما كان الأمير عبد القادر يصل حتى إلى العدو فيجعله ينبهر به وينقلب على أهله ودولته، استعمل الفرنسيون حيلا كثيرة في مجابهة هذه الشخصية العظيمة التي هزت أركان جيشهم، فما وجدوا غير طريق التزوير والكذب وتشويه صورته ملاذا لهم لعلهم ينتصرون.

3. المعاهدات التي كانت بين الأمير والدولة الفرنسية

كان بين الأمير والمستعمر الفرنسي ثلاث معاهدات، وهي معاهدة ديميشال (**traité Desmichels**) ومعاهدة تافنة (**Le traité de la Tafna**) ومعاهدة لاموريسيير (**Lamoricière**)، وأثارت هذه المعاهدات الكثير من الجدل بين مَنْ يعتبرها ضعفا وتنازلا للمستعمر وموالاة لهم، ومن يعتبرها دليلا على ذكاء الأمير ودهائه السياسي ومحطات فارقة وضرورية في كل حرب، وأن الأمير قد أحسن استغلالها.

1.3 . معاهدة ديميشال (1834م) وتافنة (1837م):

كان بين الأمير والمستعمر الفرنسي معاهدتين شهيرتين، وهي كل من معاهدة ديميشال وتافنة، فالأولى كانت بطلب من الجنرال ديميشال بعد أن أدرك قوة خصمه ولم يجد للصلح بديلا حتى يرفع الغبن عن جيشه ويرضي بلده ويستقوي بعد ذلك إثر تكبده لخسائر كبيرة، فبعث للأمير بطلبه وكانت الموافقة على المعاهدة في 26 فيفري 1834م، وكان مبعوث الأمير فيها هو ابن عراش، ويذكر صاحب تحفة الزائر أن هذه المعاهدة كانت أشبه "بالمتاركة" والمقصود بذلك أن كل منهما ترك لنفسه مخرجا يخرج منه متى شاء[19]، وكذلك كان الأمر في معاهدة تافنة والتي كانت بين الأمير والجنرال بيجو.

ولقد كان بيجو السبَّاق لإرسال شروطه إلى الأمير والذي ما إن وصلت إليه وقرأها حتى سارع بإرسال لائحة ردا على ما وصله من الجنرال، وبعد مراسلات عديدة بينهما، كتب كل منهما شروطا توقف الجميع في قبولها [20]، وقد نظر الأمير في شروط بيجو التي صعب عليه قبولها، فرأى أن يصلح خللها ويعدل بها إلى مالا يقدح في دينه ومنصبه ثم يعرضها عليه، فجمع مجلسا عاما من العلماء وأعيان الدولة واستشارهم في أمره ووضح لهم حال عمالة

E-ISSN : 2571-9742
P- ISSN: 1112-945X

التيطري التي كثر فيها الشغب وأبرز لهم فائدة الصلح وكيف أنه لو استأنف الحرب بينه وبين العدو يفوته إصلاح الخطأ الواقع وينتهي الأمر إلى ما خير فيه.

فرأى البعض أن الحل في الهدنة، ولم يقبل الآخرون وقالو باستمرار الحرب، فتدخل والد الأمير علي أبو طالب وخطب فيهم خطبة قد ذكرها صاحب "تحفة الزائر" وفيها توضيح لأهمية الهدنة وتوحيد الصف وصفاء النية وصحة المقصد وحرمة دم المسلم وعظمته عند الله، فلما سمع المخالفون ذلك رجعوا في أمرهم وتم الاتفاق على الصلح، وبذلك تمت المعاهدة في 30 ماي1837م [21]. وفرنسا هي من عرضت الصلح على الأمير، الذي بدوره استشار أعيان دولته في ذلك فبعد أن قبلوا تمت المعاهدة وقد كانت لصالح دولته الفتية حتى يتفرغ لإدارة شؤونها، وهذا مختصر لأهم ما كان في المعاهدتين.

2.3 اللغة التي كتب بها نص المعاهدتين

زعم البعض أن نص المعاهدتين، حرّر باللغة الفرنسية وهو ما ادعاه الباحث شارل كوكنبوت (Cockempot) فيما يخص نص معاهدة ديميشال، وقال أنها كتبت بالفرنسية والنص العربي ما هو إلا ترجمة للنص الفرنسي الذي أعده الجنرال ديميشال لأنه لا يعرف العربية، كما وقد زعم أن الأمير وضع خاتمه على النص المترجم، وهو ما ينكره كل مطلع وعارف بشخص الأمير وتاريخه، فالأمير كان يرسل شروطه بالنص العربي فيقبلوا أو يصيغوا شروطا أخرى، وبعد الموافقة يأخذ كل طرف نص المعاهدة ويحتفظ به[22]، وذلك واضح مما يرويه تشرشل عن معاهدة ديميشال وتبادل المقترحات بين الأمير والجنرال[23]، وما يرويه ابنه عن حوادث المعاهدة وتبادل المقترحات والقبول والرفض والتعديل بين الطرفين[24].

وكذلك الأمر بالنسبة لمعاهدة تافنة، فالنص العربي الموجود لا يمكن أن يكون هو النص العربي الأصلي، لأنها ليست من أسلوب الأمير عبد القادر في شيء، وإنما هو ترجمة قام بها السيد بريسني (bresnier) الذي كان أستاذا للغة العربية في الجزائر[25]، وخير دليل على أن الأمير كان يكتب شروطه باللغة العربية ويرسلها إلى الفرنسيين ما ذكره صاحب تحفة الزائر في حديثه عن معاهدة تافنة حيث قال "حرر في تافنة يوم 1 جوان عام 1838م وحرر صك

E-ISSN : 2571-9742
P- ISSN: 1112-945X

المعاهدة في نسختين كل منهما شطرين عربي وفرنساوي، فكتب الأمير اسمه بخطه على الشطر العربي وختم عليه بخاتم الإمارة، وكتب الجنرال بيجو اسمه بخطه على الشطر الفرنساوي وختمه بخاتمه الرسمي، وأخذ كل منهما نسخة"[26]، فكل الرسائل والمعاهدات التي كانت بين الأمير والمستعمر الفرنسي وثبتت نسبتها إليه، كانت بالخط العربي.

وقد كان بين الأمير والجنرال بيجو حوار حول أحد بنود معاهدة تافنة، ومما جاء فيه: "... فتعريجكم على تأويل الألفاظ لا يليق بكم ولا بنا...فأجاب المارشال إن مراجعاتي لسموكم مبنية على ملاحظة كلمة فوق المذكورة في التحديد الشرقي، فأرجو أن تلاحظوها... فأجابه الأمير إن جوابي الأول وما بعده ومراجعاتي كلها مؤسسة على ملاحظة ما ذكرناه في التحديد كلمة كلمة وهذا هو الصواب والمطابق لكلام العرب... وعندكم من علماء اللغة من يحقق لكم ذلك"[27]، وهذا دليل واضح وصريح على أن رسائل الأمير كانت باللغة العربية الفصيحة وليست باللغة الفرنسية ولا بالدارجة، وهذا يدحض كل ما نسب إليه مما ذكرناه سابقا، وتبقى رسائل الأمير الأصلية باللغة العربية غير موجودة، فربما أحرقت وربما ضاعت.

3.2 . معاهدة الأمير والجنرال لاموريسيير (Lamoricière) 1847م :

أثارت هذه المعاهدة الكثير من الجدل وخاصة بين من يعتبرها معاهدة استسلام وهو ما ذكره هنري تشرشل في كتابه "حياة الأمير عبد القادر" وأغلب المؤرخين الفرنسيين، وبين من يرفض ذلك ويعتبرها "استئمان زمني"، وهذا ما قال به أغلب المؤرخين الجزائريين أمثال الدكتور ناصر الدين سعيدوني الذي تجنب هذا المصطلح وعبر عنه بقوله: "... قرر الأمير عبد القادر على أثره التوقف عن الجهاد وإلقاء السلاح..."[28]

ولكن رغم تجنبه لفظ الاستسلام، إلا أنه لم ينكر ذلك صراحة، أما الدكتور يحي بوعزيز فقد رفضه وقال إنه "استئمان زمني" وذكر ذلك في كتابه "كفاح الشعب الجزائري"[29]، وكذلك الحال لحفيدة الأمير بديعة حسني التي أنكرت هذا الأمر وشددت على من يدعي استسلامه في كتابها "الأمير عبد القادر حياته وفكره"، ويذكر ذلك الدكتور علي محمد الصلابي[30] ويوافقها الرأي في ذلك، فالاستسلام دليل على الضعف وفيه تخوين مندس تحت اللفظ، فالقول به

E-ISSN : 2571-9742
P- ISSN: 1112-945X

يفضي إلى تخوين الأمير والتشكيك في نزاهته ونزاهة حربه مع الاستعمار الفرنسي، فالمجاهد في سبيل الله وفي سبيل قضية نبيلة يموت أو ينتصر، ولكنه لا يستسلم وخاصة لعدوه، وهناك اعتبارات عدة تدل على أن الأمير لم يستسلم منها:

1- إن الاستسلام لا يكون في قوة وإنما بعد الخسارة والضعف، والأمير حين قدم عرضه لوقف الحرب على الجنرال، كان قد أرسل بشروطه إليه وتمت الموافقة عليها من طرف الجنرال لاموريسيير وأكدها الدوق دومال[31]، ووضع الشروط دليل على القوة، أما الضعيف والمستسلم فلا شروط له ولا عهد معه.

2- لم تكن معركة الأمير الأخيرة مع الفرنسيين، وإنما كانت ضد المغاربة في سلوان، حيث استمر الأمير في قيادة هذا الصراع المرير ضد الجبهتين الفرنسية والمغربية على امتداد عامين كاملين، فلما حاصرته القوات المغربية في نواحي ملوية، دخل معها في اشتباكات دامية بنواحي قلعة سلوان في ديسمبر 1847م[32]، وكان ذلك بعد أن بالغ السلطان المغربي في عدائه للأمير نتيجة للضغط الفرنسي وخوفه من فقد سلطانه فحرض عليه القبائل، ما جعل الأمير يفكر في وقف الحرب نظرا لعدم توفر الشروط لإقامة دولته، فجمع الأمير من معه من الأعيان وشاورهم في أمرهم، وذكر لهم ثلاثة خيارات أمامهم:

أ- نرجع للدائرة ونواجه الكل

ب- نبحث عن طريق الصحراء، وهذا قد يؤدي إلى هلاك النساء والأطفال والجرحى أو يتعرض لنا القبائل والفرنسيون.

ت- وقف القتال بشروط، فاختاروا الخيار الأخير[33]، وتمثلت هذه الشروط في: حريته وحرية رجاله وعائلته وسلامتهم مع المغادرة إلى عكا أو الإسكندرية، وأن يكون كل من بقي في البلاد آمنا على حياته وماله[34].

3- لا أثر لما يعيب في المعاهدة ولا يمكن اعتبارها معاهدة استسلام، وذلك من خلال اختيار الأمير الذهاب إلى عكا أو الإسكندرية، فهذا الاختيار لم يكن عشوائيا وإنما كان فطنة وذكاء، فكل من عكا والإسكندرية تعتبران مسلكا للحجاج يعبرون منهما، وهذا ما يمكّن الأمير من جس نبض أحوال الجزائر من خلال الاحتكاك بالحجاج، كما وأن الأمير قد عرض عليه خير من ذلك، ففي أوائل عام 1844م عندما كان لاجئا في

E-ISSN : 2571-9742
P- ISSN: 1112-945X

المغرب، وجه إليه الجنرال بيجو عن طريق "ليون روش(**Léon** Roches)" عرضا بأن يسمح له بالذهاب إلى مكة هو وحاشيته والعيش فيها، وكان رد الأمير في ذلك " إن ساعة من جهاد الكفار يساوي أكثر من سبعين سنة في العيش بمكة"[35].

فما الذي تغير في الأمير؟ هل تغيرت مبادئه؟ أم تغير موقفه لتغير الظروف؟ فجوابه ذاك دليل على أنه لا يسلم نفسه للفرنسيين أبدا، كما وقد ذكرت المصادر أن الأمير بعد أن أدرك أن السفينة متجهة إلى فرنسا، قال: "لو كنا نعلم أن الحال يؤدي إلى ما آل إليه، لم نترك القتال حتى ينقضي الأجل"[36]؛ فالمجاهد في سبيل الله والمدافع عن وطنه وعرضه وعن الأمانة التي بويع لأجلها يخرج للمعركة قصد الشهادة أو الظفر بمراده، والاستسلام ليس خيارا ولا يمكن أن ننسى 17 عاما من قتال الفرنسيين وهم الجيش القوي الذي يرهبه العالم، ثم نقول أن الأمير استسلم لأنه شعر بالضعف وعدم القدرة لمواصلة القتال، فلا يمكن تصديق ما يشيعه الفرنسيون حول هذه المعاهدة لاعتبارات منها:

أنه لا يوجد فيها ما يدل على الاستسلام، فاختيار الأمير لا يدل على استسلامه ولو اختار مكة أو المدينة لربما قلنا بصحة استسلامه نظرا لبعدهما الديني، كذلك خيانة الفرنسيين للعهد دليل على عدم استسلامه ولو كان استسلم لما نقضوا عهدهم معه، ونقضهم للعهد الذي كان بينهم وبين الأمير دليل على تخوفهم منه، وهذا التخوف دليل على قوة الأمير، كما أن المستسلم لا يضع شروطا مقابل استسلامه ويرسلها إلى دولة من أقوى الدول وتقبل بها ثم تخون العهد بعد ذلك وتدخله السجن، فهل يدخل المستسلم الضعيف السجن بعد أن أعطي له الأمان، فلولا أن الدولة الفرنسية لا عهد لها ولا أمان لكتبت فصول أخرى من كفاح الأمير عبد القادر.

4.3 أسباب معاهدة الأمير للفرنسيين

كانت المعاهدات ذات أهمية كبيرة لدولة الأمير وللفرنسيين على حد سواء، فأما الفرنسيين فقد كانت حركة استراتيجية لربح الوقت ومعرفة العدو وأخذ قسط من الراحة بعد خسائر تكبدوها في حروبهم مع الثورات داخل الجزائر وخاصة حروبهم مع الأمير عبد القادر،

E-ISSN : 2571-9742
P- ISSN: 1112-945X

حيث يقول شكيب أرسلان " كانت معاهدات الدول الاستعمارية مع أهالي الأقطار التي تضع نصب أعينها الاستيلاء عليها في الغالب محطات استراحة، بين الحملة والحملة، ومنازل استجمام بين مراحل الحرب لا غير..."[37].

أما فائدة المعاهدات للأمير عبد القادر والدولة الجزائرية حديثة النشأة فقد كانت فرصة للأمير للاشتغال بأمور البلاد، فأدّب الخونة، وألّف القلوب بين القبائل، وبثّ عيونه في البلاد، وشيّد المعاقل، وأصلح الحصون وبنى المصانع، ودرّب الجيش[38]، كما مكنت المعاهدات من انتصار الأمير على الفرنسيين، حيث أرغمهم في معاهدة "تافنة" على الاعتراف له بثلثي مساحة الجزائر وهو لم يعترف صراحة بالسيادة الفرنسية، وقد أصبح بذلك ندا لدولة كبرى، وحصل من خلالها على امتيازات أخرى كشراء الأسلحة[39]، وهذا ما أغضب الفرنسيين وجعلهم يخلفون وعودهم كل مرة، فذكاء الأمير وحنكته السياسية ولغته الفصيحة كانت تمكنه كل مرة من خداع الفرنسيين في المعاهدات والحصول على مراده منهم. إن الألفاظ التي اختارها الأمير في معاهداته مع الفرنسيين ومواقفه من بعض المصطلحات دليل على رفضه الاعتراف بالسيادة الفرنسية، ومن خلالها انتزع الاعتراف منهم كرئيس دولة مستقلة يتعاملون معه بالمثل[40]، وقد كان الأمير يختار ألفاظه بدقة وذكاء ما جعل المستعمر يقع في حرج من أمره، فيضطر في كثير من الأحيان إلى تأويل المعاهدات بدون جدوى، وحتى التزوير الذي طال أغلب الوثائق بين الأمير والفرنسيين كان أسلوب الأمير وألفاظه العربية الفصيحة مما لا يمكن للمستعمر تزويرها ولا التحايل عليها فتسقط الزيادات أمام فحص علمي دقيق لتلك المعاهدات[41].

أما من الناحية الفقهية فالأمير عبد القادر كان حريصا أشد الحرص على دينه، ويظهر ذلك في كل حياته ومن خلال كتبه ورسائله وكل قادته الكبار الذين عينهم من العلماء والفقهاء ووجهاء الجزائر، فإن كان في المعاهدات مخالفة لما جاء في الإسلام ما كانوا ليقبلوا بها وما كان الأمير ليتعاهد مع الفرنسيين ولو عرضوا عليه كنوز الدنيا كلها، كما أن الأمير أرسل برسالة إلى الإمام التسولي[42] يستفتيه في أمور الجهاد وبعض النوازل وقد جاء فيها حكم معاهدة المسلم للكافر الغالب بأرض الإسلام والذي عرف عنه نقض العهود وقال الإمام أنها "مداهنة"[43].

E-ISSN : 2571-9742
P- ISSN: 1112-945X

فالأمير ورغم معرفته بحكم المعاهدات ووجود فقهاء في قادته لم يكتف بذلك وأرسل إلى الإمام التسولي الذي كان آنذاك عالم المغرب، ليزيد بذلك ثقة وحجة على الأمر الذي سيقدم عليه، فما كان بينه وبين الفرنسيين من معاهدات خولته من تقوية الجيش الذي حاربهم به طيلة 17 سنة وأنشأ أركان الدولة الجزائرية الحديثة التي لا تزال قائمة لقرن ونصف من الزمن من وفاة الأمير.

4. خاتمة:

بعد ما تم عرضه من وقائع تاريخية، خلصنا ختاما إلى ما يلي:

-كانت للأمير عبد القادر مكانة رفيعة في المجتمع الجزائري لنسبه الشريف ولذكائه وشجاعته وفروسيته وعلمه.

- تمت مبايعة الأمير عبد القادر ليكون أمير الجزائر على الطريقة الإسلامية اقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم.

-امتاز الأمير عبد القادر بشخصية قوية ولباس متواضع وشكل مهيب جعل القريب والبعيد والصديق والعدو يتأثر به ويعجب بشخصه.

-كان بين الأمير والمستعمر الفرنسي ثلاث معاهدات وهي معاهدة ديميشال وتافنة ولاموريسيير.

-لم يستسلم الأمير عبد القادر للمستعمر الفرنسي ونص معاهدة لاموريسيير أكبر دليل على ذلك، فهي عبارة عن استئمان زمني مقابل بعض التنازلات من كلا الطرفين.

-كتب كل من الطرفين نص المعاهدات بلغته الأصلية، فالأمير كتب باللغة العربية وبالمقابل كتب الطرف الآخر باللغة الفرنسية، وكان لكل منهما مترجم خاص به، كما احتفظ كل منهما بنص المعاهدة التي أرسلت إليه.

- كانت المعاهدات بين الأمير والمستعمر الفرنسي عبارة عن محطات استراحة، لتنظيم الجيش وتدبير أمور الدولة، وكانت الغلبة فيها دائما للأمير لذكائه السياسي وحسن تدبيره، ما جعل المستعمر الفرنسي ينقض العهد كل مرة بعد أن يدرك خطأه.

E-ISSN : 2571-9742
P- ISSN: 1112-945X

-انتزع الأمير عبد القادر الاعتراف الفرنسي والدّولي به أميرا للجزائر وبدولته كدولة مستقلة وذلك بموجب المعاهدات التي كانت بينه وبين المستعمر الفرنسي، كما أنه انتزع اعترافهم له في معاهدة تافنة بثلثي مساحة الجزائر، وهو انتصار كبير لدولة فتية على دولة عظمى وغير ذلك من الامتيازات الأخرى التي ساعدته للوقوف في وجه المستعمر الفرنسي ومحاربته طيلة 17 سنة.

- يجب الاهتمام أكثر بتاريخ الأمير عبد القادر وتمحيصه خاصة فيما تعلق بالوثائق والكتب التي نسبت إليه منها كتاب "مذكرات الأمير" وغيره، كما يجب الرد على مختلف الادعاءات التي لا يوجد لها أدلة مثل انتماء الأمير عبد القادر للماسونية ومحاربته للدولة العثمانية وخيانته للثوار في الجزائر وغيرها من الادعاءات والاتهامات التي طالت شخص الأمير عبد القادر.

7. هوامش:

[1] فؤاد صالح: الأمير عبد القادر الجزائري متصوفا وشاعرا، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985، ص33.

[2] المنجد في اللغة والأعلام: المكتبة الشرقية، بيروت، لبنان، 1986م، ص642.

[3] COLOKEL CHURCHILL : LIFE OF ABDEL KADER, LONDON,
CHAPMAN AND HALL, 193, PICCADILLY,1867, p 1-2.

[4] فؤاد صالح: الأمير عبد القادر الجزائري متصوفا وشاعرا، المرجع السابق، ص40-41.

[5] العربي قلايلية: البعد الإنساني في شخصية الأمير عبد القادر، مجلة المعيار، العدد2، ديسمبر 2010، جامعة تيسمسيلت، ص163 حتى 167.

[6] نزار أباظة: الأمير عبد القادر الجزائري العالم المجاهد، دار الفكر، دمشق، سورية، ط1، 1994م، ص9.

[7] نزار أباظة: الأمير عبد القادر الجزائري العالم المجاهد، المرجع السابق، ص10.

[8] اسماعيل العربي: المقاومة الجزائرية تحت لواء الأمير عبد القادر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982م، ص160-161.

[9] اسماعيل العربي: المقاومة الجزائرية تحت لواء الأمير عبد القادر، المرجع السابق، ص218.

[10] د أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية، ج1، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1992م، ص 268-267.

[11] د يحي بوعزيز: الأمير عبد القادر رائد الكفاح الجزائري، الدار العربية للكتاب، تونس، 1983م، ص77-79-80.

E-ISSN : 2571-9742
P- ISSN: 1112-945X

[12] **تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر، ج1، تقديم أ داود بخاري أ رابح قادري، ص304.**

[13] د أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية، المرجع السابق، ص273.

[14] محمد باشا ابن الامير عبد القادر الجزائري: تحفة الزائر في ماثر الامير عبد القادر واخبار الجزائر، المطبعة التجارية غرزوزي وجاويش، الاسكندرية، 1903م، ج2، ص114.

[15] نفس المرجع: ص112-113.

[16] محمد باشا ابن الأمير عبد القادر الجزائري: تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر، المرجع السابق، ج2، ص145.

[17] هنري تشرشل: حياة الأمير عبد القادر، ترجمة أبو القاسم سعد الله، الدار التونسية للنشر، شارع الحرية، تونس، ص141 ;

COLOKEL CHURCHILL : LIFE OF ABDEL KADER, LONDON, CHAPMAN AND HALL, 193, PICCADILLY,1867, p 130.

[18] هنري تشرشل: حياة الأمير عبد القادر، المرجع السابق، ص 204

COLOKEL CHURCHILL: LIFE OF ABDEL KADER, LONDON, CHAPMAN AND HALL, 193, PICCADILLY,1867, p 211.

[19] محمد باشا ابن الأمير عبد القادر الجزائري: تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر، المرجع السابق، ج1، ص114-115 وكذلك كتاب:

COLOKEL CHURCHILL : LIFE OF ABDEL KADER, LONDON, CHAPMAN AND HALL, 193, PICCADILLY,1867, p52.

[20] محمد باشا ابن الأمير عبد القادر الجزائري: تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر، المرجع السابق، ج1، ص173-174

[21] نفس المرجع: ج1، ص176.

[22] هنري تشرشل: حياة الأمير عبد القادر، المرجع السابق، ص18

CHAPMAN AND HALL, 193, [23] COLOKEL CHURCHILL: LIFE OF ABDEL KADER, LONDON, PICCADILLY,1867, p 50-51-52.

[24] محمد باشا ابن الأمير عبد القادر الجزائري: تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر، المرجع السابق، ج1، ص115-116-117.

[25] هنري تشرشل: حياة الأمير عبد القادر، المرجع السابق، ص19.

[26] محمد باشا ابن الأمير عبد القادر الجزائري: تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر، المرجع السابق، ج1، ص178.

[27] نفس المرجع: ج1، ص220.

E-ISSN : 2571-9742
P- ISSN: 1112-945X

[28] د ناصر الدين سعيدوني: عصر الأمير عبد القادر، مؤسسة جائزة الأمير عبد العزيز سعود اليابطين، 2000م، ص 168.

[29] يحي بوعزيز: "كفاح الشعب الجزائري"، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ص514.

[30] د علي محمد محمد الصلابي: سيرة الأمير عبد القادر (وهو قسم من كتاب كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي)، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ص 262-263.

[31] نزار اباظة: الأمير عبد القادر الجزائري العالم المجاهد، المرجع السابق، ص12.

[32] د ناصر الدين سعيدوني: عصر الأمير عبد القادر، المرجع السابق، ص 168.

[33] د علي محمد محمد الصلابي: سيرة الأمير عبد القادر، المرجع السابق، ص261-262-263.

[34] نزار اباظة: الأمير عبد القادر الجزائري العالم المجاهد، المرجع السابق، ص12.

[35] د علي محمد محمد الصلابي: سيرة الأمير عبد القادر، المرجع السابق، ص247.

[36] د ناصر الدين سعيدوني: عصر الأمير عبد القادر، المرجع السابق، ص 172.

[37] د يحي بوعزيز: الأمير عبد القادر رائد الكفاح، المرجع السابق، ص54.

[38] محمد باشا ابن الأمير عبد القادر الجزائري: تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر، المرجع السابق، ج1، ص120 فما بعد ; د يحي بوعزيز، الأمير عبد القادر رائد الكفاح الجزائري، المرجع السابق، ص61-62.

[39] هنري تشرشل: حياة الأمير عبد القادر، المرجع السابق، ص20

[40] هنري تشرشل: حياة الأمير عبد القادر، المرجع السابق، ص18.

[41] انظر ما يذكره الدكتور أبو القاسم سعد الله في مقدمة كتاب " هنري تشرشل، حياة الأمير عبد القادر، المرجع السابق، ص18".

[42] أبو الحسن علي بن عبد السلام بن علي التسولي: من علماء المالكية الملقب ب: "مديدش"، نشأ بفاس وولي القضاء فيها، ولد بقبيلة تسول في الفترة ما بين أواخر القرن الثاني عشر وأوائل القرن الثالث عشر الهجري، وتوفي بفاس. انظر خير الدين الزركلي، الأعلام، ج4، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط15، 2002م، ص299

[43] أجوبة التسولي عن مسائل الأمير عبد القادر: تحقيق عبد اللطيف أحمد الشيخ محمد صالح، دار الغرب الإسلامي ط1، 1996، ص275